مجلة العلوم الإنسانية لجامعة أم البواقي
ISSN 1112-9255
العدد التاسع – جوان 2018

.OEB Univ. Publish. Co

في نقد خطاب الهيمنة..عبد الله إبراهيم أنموذجا.

In criticizing the hegemonic discourse..Abdullah Ibrahim is a model

ط.د هاجر حويشي، جامعة الإخوة منتوري قسنطينة، الجزائر
hadjer.let@gmail.com

تاريخ التسليم:(2018/04/12)، تاريخ التقييم:(2018/05/05)، تاريخ القبول:(2018/05/18)

ملخص :

روّج الخطاب الاستعماري في إطار غزوه للشرق جملة من الأفكار والتصوّرات الّتي غذّت رغبات السيطرة والتملك، واستجابت لسياسات الإخضاع التي يتبناها، أكثر من تمثيلها للشعوب المستعمَرة. وإنه لمن قبيل المجازفة والمهمة الشاقة الحفر فيما تستبطنه تلك المسلمات من مصادرات؛ لأنّ هذه الخطوة المنهجية تهدف إلى تفكيك ومراجعة القراءة الغربية للشرق باعتبارها ضرورة فكرية تسمح باكتشاف الحقائق المعوّمة، وإعادة بناء الصّروح المعرفية على نحو موضوعي، بعيدا عن نزعات التعالي الغربي. ويأتي عبد الله إبراهيم في طليعة النّقاد الذين ساهموا في تغيير مسار تلقي تلك المسلّمات، من خلال محاولة كسر طوق المقولات الّتي ارتبطت بالحملة الفرنسية على مصر، ليخلص في الأخير إلى إبطال مفعولها النّهضوي، وإثبات بطانتها القمعية.

الكلمات المفتاحية: الخطاب الاستعماري، التفكيك، السرد.

Abstract :

The colonial discours in the context of its conquest of the east promoted a range of ideas and perceptions that fuelled the desires of domination and ownership and responded to its surbordinate policie, more than to colonial peoples. It is resky and arduous to dig into the confinement of these postulates; as this methodologicol step is aimed at dismantling and revising the Western reading of the East as an intellectual necessity that allows the discovery of facts and the objective reconstruction of knewledge, away from the trends Western transcendence. Abdullah Ibrahim is at the forefront of critics who have contributed to changing the course of receiving those postulates, by trying to break the bond of sayings associated the French campaign against Egypt, to, finaly, end its neutralization and to prove its oppressive nature.

Key words: The Colonial discourse, dismantling, narrative,

مقدمة:

يرتاد البحث في الإبداع السردي منطقة خصبة في النقد العربي الحديث، ومن الجهود النقدية التي احتفت بهذا الحقل المعرفي الناقد العراقي عبد الله إبراهيم، الذي استغرق جلّ مشروعه النقدي في محاولة البحث والتنقيب عن الخلفيات الثقافية والسياقات الحاضنة للنصوص السردية قديمها وحديثها، بغية إضفاء أبعادٍ أكثر عمقا وشمولية يركن إليها التحليل النقدي. إنه وعلى امتداد رحلته الطويلة التي استغرقت ما يربو عن عشرين عاما يرافقه هاجس استنطاق الأصول والمرجعيات المعرفية لاستخلاص الهياكل التي تؤطّر بنية المرويات السردية والمؤثرات الخارجية التي تمارس سلطتها على الخطاب السردي في مختلف العصور.

ويسوقفنا في هذه الورقة كتابه: "السّرديّة العربيّة الحديثة، تفكيك الخطاب الاستعماري وإعادة تفسير النّشأة"، الذي أبحر عبر صفحاته إلى منطقة من مناطق المنظومة الأجناسيّة في الأدب العربي الحديث، ألا وهي مملكة الرّواية، ولما كانت معالم هذه المنطقة غنيّة وتخومها متشعّبة، جاز لنا أن نصف تلك الرّحلة بأنّها رحلة استكشافيّة منظّمة وجريئة، لما فيها من جدّة ورصانة في الطّرح والتّحليل، وذلك لعمري مسوّغ من أهمّ مسوّغات البحث العلمي الجاد، الّذي يكون بموجبه جهد النّاقد أنموذجا فذا له. ونظرا لتشعّب القضايا الّتي يطرحها الكتاب، سنقتصر على مناقشة أهمها، ويتعلق الأمر بانخراط الناقد في جمهرة الدّراسات ما بعد الاستعماريّة الّتي تنكفئ على تحليل أنظمة الاستبداد والتّمركز، بغية تفصيل الآليات التي اعتمدها في إعادة قراءة السياق الثّقافي المرافق للحملة الفرنسية على مصر.

- في تحليل أنظمة التّمركز:

تخترق استراتيجية التفكيك التي اعتمدها عبد الله إبراهيم حجب الأنساق المتحكّمة في إنتاج قيم التمركز والاحتواء، ولا شك أن هذه الخطوة ستغذي بحثه في قضية نشأة الرواية العربية، التي انبثقت في ظلّ ظروف وملابسات لم تستقر الأقلام النّقدية على قول مجمل بشأنها، فلا يكاد المتأمّل للسّياق الثّقافي المرافق لظهورها يخلص إلى تحديد معالم النّشأة والتّبلور بعيدا عن صراع المذاهب وتعدّد الآراء، لتخيّم –وبشدّة– أجواء من الغموض والضّبابيّة، بالنّظر إلى«ما طبع هذه الفترة من أحداث اجتماعيّة وسياسيّة داخل الأوساط العربيّة ولعلّ أهمّ مظهر من هذه المظاهر: الاستعمار الغربي والعلاقات المتوتّرة بين عالم الشّرق وعالم الغرب والّتي تجلّت في أكثر من صعيد»(بن تومي، 2014، د. ت، ص 342)، ويفضي بنا ديدن الاستعمار وما إليه إلى الحديث عن الدّراسات ما بعد الكولونياليّة، الّتي يتمحور مجال انشغالها حول تأثيرات الوجود الأجنبي الاستيطاني على البنية الاجتماعيّة للأمم المستهدفة، حيث يتكفّل هذا النّمط من التّحليل بـ: «دراسة جميع الثّقافات/ المجتمعات/ البلدان /الأمم من حيث علاقات القوة الّتي تربطها بسواها من الثّقافات/المجتمعات/

البلدان/ الأمم؛ أي الكيفية التي أخضعت بها الثقافات الفاتحة الثقافات المفتوحة لمشيئتها؛ والكيفية الّتي استجابت بها الثّقافات المفتوحة لذلك القسر، أو تكيّفت معه، أو قاومته، أو تغلّبت عليه» (روبنسون، 2009، ص32).

إزاء هذا، ينظر إلى هذا الحقل المعرفي الخصب على أنّه: «جزء من حقل النّظرية الثّقافية أو الدّراسات الثّقافية متعدّد الفروع، الّذي يعتمد على الأنثروبولوجيا، وعلم الاجتماع، ودراسات الجنوسة، والدّراسات الإثنية، والنّقد الأدبي، والتّاريخ، والتّحليل النّفسي، وعلم السّياسة، والفلسفة في تفحّصه النّصوص والممارسات الثّقافية المختلفة. بل إنّ الأهم من هذا التوصيف العام هو ملاحظة أنّ الدّراسات الثّقافية تجمع معا نقاد الثّقافة؛ فهي ليست مجرّد منتدى لسبر الثّقافة بتلك الطّرق الحيادية الخالية من أحكام القيمة بل تعزيز استراتيجي للنّقد، فمنظرو الثّقافة غالبا ما يشعرون أنّ تقسيمات الفروع الأكاديمية تعمل على سدّ السّبيل أمام النّقد الثّقافي بعزلها المفكرين الأفراد في أقسام مختلفة ومنهجيات مختلفة» (روبنسون، 2009، ص 30-31)، ونتيجة لذلك تنفتح الدّراسات ما بعد الكولونيالية على آفاق لانهائية، وتستعير إجراءات منهجية متباينة، تجعلها تتفوق في أحايين كثيرة على الدّراسات الثقافية، إلا أنّ «كلتيهما ترعرعتا معا، وينظر إليهما اليوم على أن بينهما تلك الصلة الوثيقة والخصبة» (روبنسون، 2009، ص 31).

غير أنّ مدار الأمر في الدراسات ما بعد الكولونيالية ينصرف إلى إعادة النّظر في ذخيرة المقولات الّتي أوجدها المستعمر/المركز، فهي على هدى مرتكزاتها النّظرية تعدّ «تحوّلا في النّظر إلى ما كان يعتبر تأكيدا أو يقينا في نظرة المستعمِر إلى المستعمَر. وهي استراتيجية في التّحليل، ومحاولة لبيان أو إظهار ما كان ناقصا أو مغيّبا في التحليلات السابقة الّتي أنتجها الخطاب الاستعماري. وبالتالي، فإنّها محاولة لإعادة صياغة هذا الخطاب وتصحيحه. وهذا ما يجعل منها فرعا مختلفا عن غيرها من الدّراسات الأدبيّة المألوفة. إنّها دراسة مثيرة للنّقاش والجدل، لمجموعة من المشكلات المجرّدة المتداخلة والمتضمنة في الخطابات المستجدة المعاصرة» (سليمان، 2004، ص 91)، عبر توسّل آليات منهجية لا تخلو من الاستقصاء الدّقيق، والحفر العميق في المحتوى الفكري الّذي يروّجه المستعمر، وفي إطار مسعى المراجعة سننتقل من التّسليم المطلق إلى تفعيل مبدأ الشكّ والارتياب، ومن ثم تهشيم أنساق التمركز التي تدفع الأقوى إلى الأمام.

ويمكن النّظر إلى النتاجات الأدبية للشعوب والبلدان الّتي طالتها التّجربة الاستعمارية، فتوارت خلف إبداعاتها آثار القدم الهمجية، وتفاصيل المناهضة والرّفض والثّورة، على أنّها آداب ما بعد-كولونيالية؛ ذلك أنّ «ما يتّصف به كل أدب من هذه الآداب من سمات مشتركة مع غيره، خارج نطاق خصوصيّة كل منهما، من حيث كونها خرجت بصورتها الحالية من التّجربة الاستعمارية، ومن خلال تأكيدها على الاختلاف عن تلك الافتراضات والصور النمطية التي أنتجها المركز الإمبريالي

عنها، واكتسبت هذه الافتراضات والصور النّمطية شرعية المسلّمات عنده» (سليمان، 2004، ص 90).

وعلى إثر هذه البطانة القمعية والصّراعية تجد ثنائية الأنا/الآخر مرتعا لها في هذا النّوع من الدّراسات الّتي ينتمي إليها مشروع عبد الله إبراهيم في الكثير من مراميه، فهو وعلى غرار المنشغلين بهذا المطلب يستضيف إبداعات متخيلة عنيت بتشكيلات الأنا عن الآخر أو العكس؛ لأنّ «الذّات من خلال هذه الصّور والمرويات، وفي إطار محاولة التميّز عن الطّرف الآخر تجد نفسها مضطرة إلى صوغ تلك الصور المشوّهة والملتبسة لذلك الآخر، حتى تبقى على صفاء وطهرانية صورتها الموهومة» (بن تومي، 2014، ص 354)، وكثيرا ما ترتبط صورة تلك المجتمعات المضطهدة في المخيال الاستعماري بالسلبية؛ لأنّ المستعمر يفبركها ويحمّلها بمعان جديدة وغير مألوفة، تسهم في صياغة صورة اختزالية للأنا تشبع رغبات المركز.

ولما أخفقت الشعوب التابعة في إيجاد ممارسة نقدية تدخل في مجال التفكير الثقافي الّذي يضع المسلّمات والأحكام الجاهزة على محكّ الفحص والتمحيص والمراجعة الشاملة، «استطاع الخطاب السّائد أن يرسّخ مقولاته ويطمس الكثير من المقولات الخاصة بالذّات، ويُوجِد بدائلَ غربية تنهض أساسا على ما ينهض عليه الخطاب الاستعماري نفسه، فتم تبني تلك المقولات بحرفيتها، دون أيّة محاولة لغربلتها وكشف مصادراتها» (بن تومي، 2014، ص353)؛ ذلك أنّ شريحة عريضة من المثقفين لم تدخر جهدا في التّصفيق لمقولات المستعمر، ولم تفكّر في الوقوف ضد النّموذج الوافد، رغم ما يحفّ تلك المسلّمات من أباطيل ومصادرات، فالمستعمِرون «"يُستَدعون" أو "يُذَوتون" (التذويت Subjectification: بروز الفرد الذي يفكر ويشعر من جسد ينظر إليه على أنه "موضوع"، أو شيء خامل. وعلى سبيل المثال، فإن النظر إلى امرأة بوصفها "موضوعا جنسيا" يعني معاملتها كجسد لا يفكر ولا يشعر أو كشيء يمكن للرجل أن يفعل به ما يشاء. ولذلك اهتمت الحركة النسوية بإحداث التذويت لدى النساء: أي إعادة بناء المفاهيم والتصورات الخاصة بالنساء بوصفهن ذواتا تفكر وتشعر وتعمل على العالم (روبنسون، 2009، ص46-47). بوصفهم سلطات، أو مدراء، أو قضاة، أو مبشرين، أو أنثروبولوجيين، ويتوقع منهم أن ينظروا إلى أنفسهم كراشدين عقلاء وإلى رعاياهم الكولونياليين كأطفال لاعقلانيين؛ و"يستدعى" المستعمَرون أو "يُذَوتون" بوصفهم "محليين"، "همجا"، وما إلى ذلك، ويتوقع منهم أن ينظروا إلى أنفسهم كأطفال ينقصهم العقل وإلى حكامهم الكولونياليين كراشدين عقلاء» (روبنسون، 2009، ص48).

فعلى خلفية هذه النّظرة الدونية والانتقاص المقصود، «برزت السردية الغربية المتعالية، والّتي تجعل من الغرب مصدر كل شيء في هذه الحياة، وكل ما عداه يأتي في الهامش، وإن أطل هذا الأخير برأسه قليلا هُرِعَ إلى احتوائه والسيطرة عليه بما يحفظ له/للغرب الاستمرارية والتّفوق»(بن

تومي، 2014، ص354)، فإذا كان من شأن الخطاب الاستعماري جعل المناطق المستعمَرة خلفيّة لمسرح تجري عليه أفظع أنواع الممارسات اللاأخلاقية، فإنّ هذه الوقائع ستشكل سندا مهما للدّراسات ما بعد الكولونياليّة الّتي ترنو إلى فهم المسلّمات الثّقافية القديمة الّتي يتمثّلها التّابع، ومن ثمّ زعزعة الكثير منها ودحضها.

وفي سياق الاشتغال على الأفكار والتّصوّرات الّتي أشاعها الخطاب الاستعماري في مجال الأدب والثّقافة بشكل عام، استطاع عبد الله إبراهيم القبض على أهم مسلّمة تطفو على السّطح مفادها أنّ: «كلّ الآداب الجديدة، والأفكار الحديثة، إنّما هي غربيّة المنشأ والمرجع، فهذه من تحيّزات ذلك الخطاب، وقد تدخلت في صوغ التّصوّرات النّظريّة النّقديّة والتّاريخيّة، صوغا شبه كامل، بما جعل التّسليم بذلك أمرا شائعا ومقبولا، فالحركة الاستعماريّة وخطابها متلازمان» (إبراهيم، 2003، ص8)، وتعود هذه المسلّمة في نظره إلى «بداية الامتثال للخطاب الاستعماري الّذي رسّخ فكرة بسيطة وواضحة، وهي أنّ التّحديث وكل ما يتّصل به جاء مع الحضور الغربي إلى الشّرق» (إبراهيم، 2003، ص11).

وممّا لا مراء فيه أنّ القيمة المعرفية والنّقدية لكتاب "السّرديّة العربيّة الحديثة" تتراءى على أكثر من صعيد، بالنّظر إلى منطلقاته النّظريّة الجديدة الّتي تتمثّل أساسا في: «اعتماده نقد الخطاب الاستعماري (Colonial Discours)، وهو نمط في التّحليل يشير إلى ما بلورته الثّقافة الغربيّة في مختلف المجالات من نتاج يعبّر عن توجّهات استعماريّة إزاء مناطق العالم الواقعة خارج نطاق الغرب على أساس أنّ ذلك الإنتاج يشكل في مجمله خطابا متداخلا بالمعنى الّذي استعمله ميشال فوكو لمصطلح خطاب. ومن ألمع ممثليه إدوارد سعيد وهوميكي بهابها وميشيل فوكو ونقاد مدرسة فرانكفورت» (الخضراوي، 2008، ص 126-127).

يبدو أنّ التّحدي الّذي يرفعه عبد الله إبراهيم في هذا الشّأن هو مراجعة مجريات اللّقاء الحضاري والثّقافي بين الشّرق والغرب في العصر الحديث، بغية التّخفيف التّدريجي من وطأة مقولات خطاب الهيمنة، من خلال إعادة النّظر في زوايا مغمورة، إذ يقول: «يحضر المؤثّر الغربي، بصورة مضخّمة، كلّما جرى البحث في نشأة الثّقافة العربيّة الحديثة، والأدبيّة منها على وجه الخصوص، إلى درجة صار ذلك أمرا مسلّما به في الدّراسات الّتي عنيت بهذا الموضوع، وندر أن تمّت عمليّة بحث جادة استقصت صواب هذه المسألة الّتي أخذ بها أغلب الباحثين، كحقيقة مطلقة، فاعتبروها من اللّوازم الحاضنة للأدب العربي، وعزوا إلى الحملة الفرنسيّة، والعلاقات المباشرة مع الثّقافة الغربيّة، بما في ذلك التّرجمة، أمر القيام بهذا الدّور بصورة كاملة» (إبراهيم، 2003، ص11)' ومن المؤكّد أنّ هذه الدّعامة النّظريّة الّتي عزّزها انشغاله بنقد المركزيّات الثّقافيّة ستمثّل في مرحلة لاحقة ركيزة أساسيّة للتّفسير الّذي يقترحه بخصوص الأصول المعرفيّة للرّواية العربيّة؛ ذلك أنّ الوعي السّائد في

صفوف الدّارسين ينظر إلى ظهور الفنّ الرّوائي في الثّقافة العربيّة بوصفه ثمرة للتّحوّلات التّحديثيّة الّتي صاحبت الحضور الغربي إلى الشّرق عبر محاكاة الأنماط الأدبيّة الوافدة والإفادة منها، لهذا يرى النّاقد ضرورة تمحيص هذه المسلّمات وإعادة التّفكير في درجة التّفاعل الحاصل بين الآداب العربيّة والآداب الغربيّة، فالكتاب «قام بإضاءة مدى محدوديّة مثل هذه المسلّمات، أمام التّأثير الواضح الّذي مارسته المرويات القديمة على جمهور واسع من متلقيها خلال هذه الفترة» (الخضراوي، 2007، ص 80).

من الواضح أنّ هاجس إبطال سلطة المرجعية الغربيّة، جعل عبد الله إبراهيم يبحث عن بدائل موضوعيّة على رأسها: العمل على تفعيل المؤثّرات التراثيّة، إذا سلّمنا بأنّ إشكاليّة الذوبان والتّماهي في مقولات الآخر، ومحاولات التّطابق الكلّي والانغماس في كلّ ما تقدّمه كشوفاته، يمكن النّظر إليه بوصفه «أهمّ عائق يقف أمام الذّات لتحقيق استقلاليّتها وتميّزها، وهذا مشكل مكين لا في فهم الأدب العربي وتصنيفه، بل هو حاضر في صميم الثّقافة العربيّة الحديثة ككل، لأنّها سمحت للآخر أن يتغلغل في أعماقها دون أي غربلة لما يحمله أو محاسبة له، ما جعلها تنفتح انفتاحا لا مشروطا عليه، فأوقعها هذا في مطبات كبرى، من أبرزها اعتبار كل فن أو علم جديدين قادمين من عند الغرب بالضّرورة، وكأنّه لا حظّ لهذه الذّات أن تبدع ولا أن تأخذ حقّها من الوجود فيه» (بن تومي، 2014، ص 337).

وفي هذا السّياق يورد منير مهادي موقفا يتحفّظ على إغراق هذا التّوصيف في التّعميم رغم رجاحته، إذ يقول: «وعلى الرّغم من صحّة هذا التّوصيف، في كثير من مناحيه إلاّ أنّ هذا لا يمنع أن نخفّف من وطأة هذا التّعميم الّذي يجعله النّاقد صفة لازمة لكلّ ما هو متعلّق بهذه الذّات: اجتماعيا وثقافيا واقتصاديا وأدبيا، وكأنّي بهذه الذّات الّتي اتّصفت بالإبداع من قبل، قد جفّ ينبوع الحياة فيها فأضحت تعيش عالة على حياة الآخر، وهذه رؤية يطبعها التّشاؤم واليأس، لأنّنا لا نعدم أن نجد بعض مظاهر الاستقلالية على صعيد عديد المستويات» (بن تومي، 2014، ص 338)، وما دام الأمر كذلك، فإنّ «المطابقة هنا ليست أمرا حتميا على الذّات أن تتّصف به، بل هي صفة لحقت بها بسبب تراكم ظروف معيّنة جعلتها رهينة هذا الامتثال للآخر، فإذا ما انتفت هذه الظّروف وتغيّر الوضع قد تخرج هذه الذات إلى رحاب الاختلاف والتّميز، ويمكنها إذّاك أن تطرح أسئلتها الخاصّة كما كان لها أن تطرحها من قبل»(بن تومي، 2014، ص 338)، وتأسيسا على هذا يدعو عبد الله إبراهيم إلى الاختلاف عن الآخر عبر التّخلص من مظاهر المابقة، من خلال تعديل مسار تلقي المعارف الواردة، وممارسة حق النّقد سبيلا للخروج من وطأة التّبعيّة والهوان، بالإضافة إلى الاختلاف أيضا عن الموارد التّراثيّة، «فما أفادها أن تقلّد الغرب، وما كان لها التّراث ملجأ آمنا، خاصّة بالطّريقة الّتي تعاملت بها معه من خلال نظرتها المفرطة في تقديسه، لدرجة أصبحت لا ترى

فيه إلا الصلاح، ولا تسمع –لانغلاقها عليه– نداء الحاضر الّذي تحيا فيه، فكانت في الحالتين بعيدة عن وجودها وزمانها» (بن تومي، 2014، ص337).

وهذا هو عين ما انتهت إليه أطروحة عبد الله إبراهيم، الّذي ذهب إلى تأكيد هيمنة المؤثّر الغربي وتوجيهه للمقاييس الأدبيّة والمقاربات النّقديّة، يغذّي ذلك ما يفعله بعض النّقاد العرب من نسبة الأنواع الأدبيّة كالرّواية والمسرحيّة والملحمة إلى الآخر، حيث تفصح هذه النّزعة الامتثاليّة الّتي تتواطأ مع موجّهات مستعارة عن قضيّة شائكة تجب مناقشتها؛ لأنّنا نشهد إجماعا نقديا على أنّ «الرّواية فنّ غربيّ، وهو ما يبرز قضيّة التّحيّز في هذه التّصوّرات الشّائعة، الّتي بنيت على مرجعيّات غربيّة متمركزة حول نفسها، ونشأت ضمن منظومة أو نتاج وعي يرى في الغرب الحقيقة المطلقة، هذا الوعي الّذي أشاعه الخطاب الاستعماريّ، وهذا الخطاب الذي يصادر على المطلوب بحاجة إلى نقد وتفكيك، يتيح له مراجعة مقولاته وفرضياته، ويترك مجالا للاختلاف، ولإعادة المساءلة والتّفسير» (هاشمي، 2013، ص 161).

استنادا إلى هذا المنحى التّفكيكي، اتّخذ عبد الله إبراهيم من فرضيّات النّقد العربي المتعلّقة بقضيّة نشأة الرّواية العربيّة منطلقا لتحليلاته وعيا منه بأنّ هذه الطّروحات تحمل في طيّاتها تأثيرات الهيمنة الاستعماريّة، ممّا يستلزم استحداث تحليل جديد للظّواهر الأدبيّة في ضوء السّياق الثّقافي الّذي أنتجها، فنراه يتناول بالتّفكيك طرائق التّلقي العربي للرواية الغربيّة المترجمة، بعيدا عن الأحكام المتسرّعة والتّفسيرات الخاطئة، وهذا ما ينبئ حسب غزلان هاشمي عن: «جهد كبير كان قد تجشّمه عبد الله إبراهيم ليفحص من جديد علاقات الإرسال والتّلقي الّتي حكمت نشأة السّرد العربي الحديث» (بن تومي، 2014، ص 344). على أنّه لا ينبغي أن يحيلنا اتكاؤه إجرائيا على التّفكيك إلى معان تتّصل بالهدم والتّخريب، بقدر يرتبط كاستراتيجية حسب جاك دريدا بـ: «تحليل البنى المترسّبة الّتي تشكّل العنصر الاستدلالي، كما تشكّل الاستدلالية الفلسفيّة الّتي نفكّر من خلالها. ولقد يكون هذا عبر اللّغة، وعبر الثّقافة الغربيّة، وعبر مجموع ما يحدّد انتماءنا إلى هذا التّاريخ الفلسفي» (دريدا، 2009، ص 65).

من الواضح أنّ عبد الله إبراهيم يهدف إلى إعادة ترتيب الوقائع التّاريخية للكشف عن مصادرات الخطاب الاستعماري الّتي أشاعتها تحليلاته للظواهر الأدبيّة والثقافيّة، والّتي تستمد شرعيّتها من مرجعياته المتمركزة حول ذاتها، حيث يتنزّل –بمقتضاها– الغرب بوصفه «الخلاصة النّهائيّة لكلّ الحقائق» (إبراهيم، 2003، ص 76)، هذه المسلّمة في نظره بحاجة ماسّة إلى التّفكيك والمراجعة؛ لأنّ القول بثبوت الأصول الغربيّة للرواية العربيّة يشوبه التّعميم والإقصاء، والمبرّر الّذي يسوقه النّاقد لدحض هذه القراءة مفاده أنّ: «المرويّات الكبرى، ومنها الرّواية لا يشترط فيها التماثل المطلق، لا في أسباب النّشأة ومسوّغاتها ولا في أصولها، ولا في أبنيتها أساليبها، فالرّواية هي الفنّ النّسبيّ

الأكثر قدرة على التّحوّل والتّطوّر والاختلاف» (إبراهيم، 2003، ص76)، فالرّواية منفتحة على كل الأساليب والمضامين والعوالم المتخيّلة.

– الحملة الفرنسية وأقنعة التّحديث:

استعان عبد الله إبراهيم في رحلة التّفكيك وإعادة البناء، بما يسمّيه رؤية نقديّة تسعى إلى: «إعادة تركيب الحقائق الثّقافيّة في ضوء علاقتنا بها، وليس في ضوء استقرارها في الخطاب الغربي الّذي أشاعته ثقافة متمركزة على نفسها يخيّل لها أن النّتائج الّتي توصّلت إليها من العموميّة والثّبات بحيث تكون صالحة وصحيحة، لتفسير كلّ الظّواهر الثّقافيّة والأدبيّة في كلّ زمان ومكان» (إبراهيم، 2003، ص77)، فالنّاقد توسّل التّفكيك كآليّة إجرائيّة بوصفها «محاولة لتحريك الثّوابت الّتي تصلّبت بمرور الزّمن بسبب ظروف وسياقات متنوّعة نتج عنها انغلاق على تلك الثّوابت، بنيات ومفهوما، ليس فقط من أجل تحريكها (أي الثّوابت) والخروج على دائرة الانغلاق، وإنّما لكشف اللّبنة القلقة داخلها، وردّ الظّواهر إلى مسارها الصّحيح، حتّى يمكن فهم هذه الظّواهر فهما يوافق السّياقات الحاضنة لها ممّا يسمح بالتّوغّل في المناطق المعتمة والغامضة وحتّى المنغلقة داخل الذّات العربيّة الإسلاميّة، لذلك يقوم عبد الله إبراهيم بتفكيك الخطاب الاستعماري الّذي كان سببا رئيسا في توجيه الفهم العربي لتاريخه الحديث، ووعيه بأساليب نهضته، حيث حمّلت حملة "نابليون بونابرت" على مصر (1798–1801) أكثر ممّا تحتمل، فجعلت حاملة وناقلة للحضارة الغربيّة إلى البلاد العربيّة، فقيّد كلّ حراك ثقافيّ فيما بعد ذلك بهذه الحملة، ما جعلها حملة مباركة لدى كثير من النّاس وحتّى من المثقّفين أنفسهم» (بن تومي، 2014، ص343).

لا مشاحتة أنّ واقع الثّقافة العربيّة الحديثة روّج لفكرة مفادها أنّ كلّ منجز حداثي ينتسب في أصوله إلى الحضارة الغربية لا محالة؛ بل إنّ جلّ التّحليلات النّقدية اتّجهت إلى وصل البدايات الفعليّة للنّهضة بالآخر، حيث تمثّلها الخطاب العربي كبديهيات ومسلّمات لا ينبغي مناقشتها، ليتمّ التّأريخ رسميا لموعد العرب مع التّحديث بالحملة الفرنسيّة، فإذا كان «الفكر العربي ومعه الرواية العربيّة قد عاشا مرحلة الجمود والتّخلف والانحسار إبّان الحقب المسمّاة بحقب الانحطاط، فإنّ حملة نابليون على مصر قد شكّلت مرحلة جديدة في تاريخ الفكر والثّقافة العربيّين، إذ تسبّبت هذه الحملة في صدمة حضاريّة كبرى أدّت إلى الرّجة العظمى الّتي عاشتها المجتمعات العربيّة...على مستوى الفكر والمجتمع والسّياسة» (الحسيب، 2014، ص17).

بيد أنّ عبد الله إبراهيم عمد في التّمهيد الافتتاحي إلى تحليل مظاهر التّأثير الغربي على الثّقافة العربيّة في القرن التّاسع عشر ليكشف عن محدوديّته، من خلال مناقشة معطيات الحملة الفرنسيّة على مصر حيث استطاع من خلال هذه القراءة الثقافيّة إماطة اللّثام عن الوجه المتواري لها، حيث احتجّ على الطّريقة الّتي ضخّم بها المدافعون عنها أهدافها حتّى جعلوا منها عملا رمزيا عظيما أنقذ

مصر ممّا كان يتهدّدها، وكشف المصادرات الّتي رسّخها الخطاب الاستعماريّ الّذي دافع عنه نقاد ومحلّلون عديدون؛ ذلك أنّ الثّقافة العربيّة لم تتمكّن من التّخلّص من تأثيراته بل روّجت طروحاته وأيّدتها، في سبيل الإعـلاء من قيمـة هذه الحملـة ذات الطّـابع العسكري، والّتي تصفها مقولاته بأنّها حملة النّهضة الّتي كانت فيصلا حاسما بين عصرين متناقضين في تـاريخ مصر، مؤكّدا أنّ رياح التّحديث رغم بطئها ولكنّها كانت في طريقها إلى الشّرق لا محالة، بل إنّ الحملة لم تكن إلاّ عائقا حال دون النّهضة، وفي هذا السّياق يعقّب النّاقد على التّصورات الّتي ارتبطت بهذه الحملة قائلا: «ويبدو لنا أن تراكم الافتراضات القائمة على هذه الواقعة، وهي افتراضات قائمة على سلسلة متواشجة من الرّغبات وليس الحقائق، وغياب النّقد التّاريخي الجذري لها، وإهمال المراجعة الدّورية الّتي تستخلص من وقت لآخر القيم المعرفيّة من الأحداث التّاريخية، ثمّ اللّجوء إلى النّتائج السّهلة والسّريعة، والهوس الذّهني الامتثالي لمقولات أشاعتها الثّقافة الغربيّة المتمركزة حول ذاتها، قد تفاعلت معا لتضخيم هذه الواقعة، وإضفاء دور مبالغ فيه عليها، وتحتاج هذه الواقعة أكثر من غيرها إلى أن تفرّغ من المغزى المفتعل الّذي ألحق بها، وإعادة النّظر إليها بوصفها حدثا تاريخيا من الأحداث الّتي تتواتر عبر العصور، وتعرفها كثير من الأمم والثّقافات.لا يمكن أن يرتهن التّاريخ لخطأ» (إبراهيم، 2004، ص ص 194-195).

وفي ضوء هذه المعطيات أعاد النّاقد النّظر في السّياق الثّقافي الّذي احتضن حملة نابليون بونابرت، فوجده مليئا بالاحتقانات والأحداث الدّامية الّتي تثبت الصّبغة العسكريّة للحملة، ممّا ينفي أيّ تفاعل إيجابيّ أو تواصل بنّاء بين مصر وفرنسا، وبذلك تؤول كلّ الوقائع المرافقة للحملة إلى أبعادها الحقيقيّة بعدما تعرّضت لمبالغات لا تحصى بما في ذلك بناء المطبعة؛ ذلك أنّ المنجزات الغربيّة لم يكن الغرض منها تحديث مصر بقدر ما كانت استجابة لرغبات استيطانية متأجّجة، كما أنّ معظم المشاريع لم يتم تدشينها نظرا لقصر الحملة وطابعها العنيف، فالتّحديث حسب ما آلت إليه قراءة عبد الله إبراهيم لم يكن سوى مشروعا واهما لم يكتب له التحقق واقعيا.

ويذهب إدريس الخضراوي في هذا السّياق إلى التنويه إلى حقيقتين جوهريتين لم يأخذا بعين الاعتبار عندما جرى ربط التحديث بالحملة الفرنسيّة، أوّلهما: «أنّ مصر عرفت الوجود الغربي بشكل مبكر قبل الحملة، حيث جاء إليها رحّالة وتجّار وفنّانون من إيطاليا والبرتغال وفرنسا، شأنها شأن الكثير من الدّول الشّرقيّة، أمّا الحقيقة الثّانية وهي أنّ التّحديث كان استجابة طبيعية لحاجات المجتمع المصري في تلك المرحلة ولم يكن نتيجة مباشرة للتّواجد الفرنسي. فدولة محمد علي كان يسكنها طموح كبير بامتلاك أسباب القوة العسكرية، لذلك أرسلت البعثات إلى الدّول الأوروبيّة أملا في تحقيق هذا الهدف. أمّا ما أنجزته الحملة الفرنسيّة هو أنّها أنعشت المشكلات الطائفيّة في مصر وأجّجتها» (الخضراوي، 2008، ص129) .

ارتباطا بهذه الناحية تحديدا يستخلص عبد الله إبراهيم أنّ الحملة الفرنسيّة لم يكن لها من أثر إيجابي يذكر، بقدر ما ساهمت في تمزيق النسيج الاجتماعي لمصر وتلاعبت بطوائفها وأعراقها، وأنّ ما علق بها من أمجاد كانت محض أوهام ومغالطات روّجها الخطاب الاستعماريّ تيسيرا لسبل الاستحواذ والتّملّك، فتربّعت هذه التّخريجات في الأوساط الثقافيّة العربيّة، كما أنّ المناخ الثّقافي الغربي الّذي واكب الحملة تميّز بهيمنة واضحة للفكر الرّومانسي، ليتنزّل نابليون بونابرت في الذّهنية الغربيّة بوصفه رجلا حالما يرتبط اسمه بالفتح والتّنوير أكثر ممّا يرتبط بقيادة الحملات العسكريّة، وهو زعم لا تؤكّده الوقائع التّاريخيّة الّتي تفضح ما تعرضت له الجيوش الفرنسيّة من مقاومة ضارية من قبل الأهالي المصريين، يقول عبد الله إبراهيم في هذا المضمار: «كانت الحملة الفرنسيّة على مصر ذروة سلسلة من الاحتقانات المعبّرة عن سوء تفاهم، بسبب تنازع المنظورات الثّقافيّة والدينيّة والسياسيّة الموروثة منذ العصر الوسيط بين الغرب والشّرق، وبوصفها عملا من أعمال سوء التّفاهم بين عالمين معتصمين بذاتهما، فقد ظهرت في أفق رومانسيّ مجرّدة عن خلفياتها التاريخيّة الحقيقيّة، وبدت في أدبيّات القرن التاسع عشر، عملا فاتنا ومعبرا عن صورة البطل الفاتح الّتي ترمز بشكل بليغ إلى لقاء مثير بين عجائب مصريّة سرمديّة، والقدر الفردي لبطل هو "نابليون بونابرت". فالخيال الرّومانسيّ أنزل تلك الحملة منزلة الفعل الفرديّ لبطل يتألّق عمله التّاريخي في أفق شرقي خامل، لكنّه عجيب، والدّمج المتقصّد بين الخمول والعجائبيّة، وجد أفضل تجلياته، فيما ورثته الحملة من أدبيات خاصة بها في الثّقافتين الغربيّة والعربيّة، وفي مقدّمتها كتاب "وصف مصر" الذي أظهر البلاد المصرية على أنها "يوتوبيا"، كما توصل "ترونيكر" إلى ذلك» (إبراهيم، 2004، ص 195).

وبهذا ينتهي النّاقد بعد تحليله الثّقافي الّذي خصّصه لمناقشة ومساءلة واقعة الحملة الفرنسيّة على مصر، الّتي انتهت مسلّمات الخطاب الاستعماري إلى تضخيم نتائجها والنّظر إليها بوصفها مرحلة انتقاليّة، وبوّابة للحداثة مؤكّدا أنّ الحملة عسكريّة، لا يمكن أن تثمر أيّ نتائج إيجابيّة على مختلف الأصعدة، فهي لم تتخلى عن بطانتها القمعيّة الاستدماريّة، ورغبتها الاستغلاليّة، ومن العبث وسوء الفهم تحميلها بقيم نهضويّة بنّاءة، ومن أجل دحض هذه المسلّمة الّتي يسعى الخطاب الاستعماري إلى ترسيخها، استعان النّاقد بجملة من الشّهادات والوثائق الّتي عزّزت موقفه بخصوص هذه المسألة.

- حملة نابوليون واليوتوبيا الاستشراقية:

يعتمد الخطاب الاستعماري على مفاهيم القمع والحرب الّتي ترسّخ فكرة الهيمنة المستمرّة، ويكتب لخطاباته الذّيوع في المستعمرات التابعة له بالنّظر إلى درجة التّفاوت في موازين القوى، كما أنّ مخطّطاته الاستدماريّة تتغلّف بغلالة من المقاصد والغايات البنّاءة الّتي تضلّل الأبعاد الحقيقيّة لها، وتكشف في مقابل ذلك رؤى تتشبّع بالقيم الإنسانيّة والنهضويّة، ممّا يكشف حسب التبصّر الفوكوي

سلسلة التّواطؤات الّتي تحدث بين المعرفة والسّلطة في إطار علاقات التّابع بالمتبوع، فالمعرفة «ليست بريئة، لكنّها ترتبط بعمق مع عمليّات السّلطة» (لومبا، 2007، ص 54).

وإن كنّا سنتجاوز استطرادات وتفاصيل عمل السّلطة في التّصور الفوكوي، لنركّز على المشروع التّأسيسي لإدوارد سعيد من خلال كتابه "الاستشراق" الّذي تأطّر نظريا بفلسفة ميشال فوكو، لإيجاد الأواصر الحقيقيّة والمصطنعة بين إنتاج المعرفة وممارسة السّلطة عبر الاستعانة بالنّماذج الأدبيّة، «ممّا يظهر إلى أيّة درجة كانت "المعرفة" حول الشّرق من حيث إنتاجها ونشرها شيئا آيديولوجيا ملازما "للسّلطة" الاستعماريّة» (لومبا، 2007، ص54)' فإدوارد سعيد يؤكّد أنّ «معرفة الشّرق لا يمكن أن تكون بريئة أو موضوعيّة لأنّ الّذين أنتجوها هم بشر كانوا بالضّرورة مطوّقين بالتّاريخ والعلاقات الاستعماريّة» (لومبا، 2007، ص57).

يقودنا هذا إلى الحديث عن إنتاج المعارف الاستشراقيّة الّتي ترتبط ضمنيا بأبعاد أيديولوجيّة تنبعث من التّمركز الثّقافي للغرب، ممّا ينزع عنها الموضوعيّة والمصداقيّة؛ ذلك أنّ «الاستشراق كمؤسسة قدّمت فيما بعد العدسة الّتي سينظر إلى "الشّرق" من خلالها وتتّم السّيطرة عليه، إلاّ أنّ هذه السّيطرة ذاتها هي الّتي أنتجت تلك الطّرق من المعرفة، والدّراسة، والاعتقاد، والكتابة. إذا فالمعرفة حول الأراضي المستعمرة والسّيطرة على تلك الأراضي هي مشاريع ذات صلة ببعضها» (لومبا، 2007، ص 55)؛ لذلك يبحث مشروع إدوارد سعيد في التّواشجات الخفية بين المعارف الاستشراقية وقوى الهيمنة وعيا منه بأنّ «"المعرفة" حول اللاأوروبيين كانت جزءا من عملية السّيطرة عليهم. وهكذا يزول الإلغاز عن مكانة "المعرفة"، وتصبح الخطوط غامضة بين ما هو آيديولوجي وما هو موضوعي » (لومبا، 2007، ص56).

وممّا لا شكّ فيه أنّ الاتجاه إلى تحليل الخطاب الاستعماري في شقّه الاستشراقي، من شأنه أن يتيح إمكانية «تتبع الصّلات بين الظّاهر والخفي، والمهيمن والمهمّش، والأفكار والمؤسسات. إنّه يسمح لنا رؤية كيفية عمل السّلطة من خلال اللّغة والأدب والثّقافة والمؤسّسات الّتي تضبط حياتنا اليوميّة» (لومبا، 2007، ص58)، فموقع المركز يمكن من خلاله إطلاق ترنيمات التّحديث اللانهائيّة، بعد الاشتغال على تنقيحها ومن ثمّ بعثها في لبوسات مغايرة تخلع عنها ما رافقها من ممارسات استحواذيّة، وهذا قصد إنعاش مشاريع التوسّع والاستيطان، فإدوارد سعيد بتوسيعه التصور النّظري للسّلطة عبر ربطها بالفكر الاستشراقي استطاع حسب آنيا لومبا أن «يبتعد عن الفهم الضيّق والتّقني للسّلطة الاستعماريّة، ويظهر كيف عملت من خلال إنتاج خطاب حول الشّرق أي من خلال توليد أبنية فكريّة كانت ظاهرة في الإنتاج الفنّي والأدبي في خلق الدّراسات الاستشراقيّة» (لومبا، 2007، ص58).

ولا يتردّد عبد الله إبراهيم في إبراز القيمة المعرفيّة والفكرية لكتاب "الاستشراق"، إذ يقول: «ويمكن القول إن كتاب الاستشراق افتتح نوعا جديدا من دراسة الاستعمار. يحاجج سعيد أنّ تمثيلات "الشّرق" في النّصوص الأدبيّة الأوروبيّة، والمحاضرات المصوّرة للرّحلات وكتابات أخرى ساهمت في خلق انقسام بين أوروبا و"الآخرين" التّابعين لها، وهو انقسام كان مركزيا في خلق الثّقافة الأوروبيّة، بالإضافة إلى المحافظة على الهيمنة الأوروبيّة وتوسيعها على امتداد أراض أخرى»(إبراهيم، 2004، ص 56) ؛ ذلك أنّ فحوى النظريّة الّتي قال بها إدوارد سعيد مفادها أنّ «الغربيّين...حين نظروا إلى الشّرق فإنّهم غالبا نظروا إلى شرق أرادوه أو تخيّلوه أو ارتسم في أذهانهم، وليس الشّرق المادي والجغرافي الحقيقي» (كاظم، 2013، ص 34).

ويمكن أن نشير في هذا السّياق إلى اغتناء أطروحات عبد الله إبراهيم بأفكار إدوارد سعيد الرّائدة في مجال الدّراسات ما بعد الكولونيالية لاسيما ما تعلق بمشروعه الشهير "الاستشراق"، فمن خلال تتبعه لسياق الثّقافة العربية الحديثة استطاع عبد الله إبراهيم أن يمسك بالخيط الرّفيع الّذي يربط التّمثيلات الاستشراقية بالمطامع الاستعماريّة، ودرجة الزّيف التي تعرضت لها الحقائق التاريخية جرّاء هذا التّواطؤ، وهذا عين ما يقرّره النّاقد في قوله: «نشطت المدوّنات الاستشراقيّة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في تقديم صورة اختزاليّة للشّرق ثقافة ومجتمعا، صورة توافق الرّؤية الّتي ينتظرها الغربيّون، وتستجيب لتصوّراتهم النّمطية عنه، وتفاعل الخطاب الاستعماري والصّورة الرّغبويّة الاستشراقيّة في استبعاد الأشكال الحقيقيّة لتلك الثّقافة وذلك المجتمع، وذمّها، وبها استبدلت أشكال أخرى توافق تصوّراتها. ومن المؤكّد أنّ الخطاب الاستعماري، الّذي أبرز تلك الصّورة، كان قويا ومحكما ومؤثّرا شأنه في ذلك شأن الوسائل الّتي أوصلته إلى الشّرق، فالامتثال للقوّة الاستعماريّة رافقه امتثال لخطابها في وصف الثّقافات والمجتمعات، وجرى استبعاد أشكال التّعبير الأصليّة كافّة الّتي لا تنطبق عليها الأوصاف الجاهزة والمستعارة، فهمّشت، وصارت خارج مدار الاهتمام؛ نبذت لأنّها تذكّر بمرحلة ما قبل التحديث الغربي، وجرى عبر الزّمن إعادة صوغ للوعي الجماعي بما يوافق تلك المفاهيم الاستشراقيّة، ولم تعد الأشكال الأصليّة تستأثر باهتمام يذكر، وصارت جزءا من اللّامفكر فيه، لأنّها خارج نطاق الوعي، وفي مراحل لاحقة أصبحت تلك الأشكال معيبة وقاصرة، وثبتت دونيّتها، ولم تستأثر بعناية لأنّها تعنى بما صار جزءا من حقب مظلمة، طمست باعتبارها عورة تحيل على تاريخ ينبغي نسيانه، يفجع به كثيرون إن هو، بمناسبة ما، شخص فجأة وأعلن عن نفسه، يحدث حضوره ارتباكا غير مرغوب فيه، ينبغي الهروب منه بشكل ما، لم يعد لائقا، وبه ينبغي أن يستبدل تاريخ مغاير. وكان الفكر الغربيّ الّذي تبلورت ملامحه في الحقبة الاستعماريّة يريد تخطّي عثراته التّاريخيّة، ويبحث عن مرجعيّة فوجد في التّدرّج الخطّي الغربي المستعار ملاذا يدفع به إلى الأمام»(إبراهيم، 2004، ص149).

فلا عجب إذا، تأسيسا على ما تمّ إيراده، أن يتوصّل النّاقد إلى أنّ المتخيّل السّردي الاستشراقي صوّر الشّرق من منظور يوتوبي أثيري يرتبط بالعجائبيّة، يكون بموجبه المشروع الاستعماري مزيجا من المتناقضات الّتي تجمع بين غايات التّملك والسّيطرة، ورغبات الاكتشاف والمغامرة، فالحملة الفرنسيّة وسمت بشعارات ثقافيّة فضفاضة، بيد أنّها «تعكس في حقيقتها رغبة الذّات المركزيّة في إثبات وجودها، عن طريق إلغاء الآخر وتدميره، ومن هنا تمّ إعادة تفسير التّاريخ بما يطمس الدّافع الحقيقي، ويقوم بتعويم الحقائق واستبدالها بتفسيرات خادعة وشعارات مضلّلة»(هاشمي، 2013، ص 156-157). على إثر ذلك، يوضّح عبد الله إبراهيم كيف أعاد الخطاب الاستعماري وفق إرادة القوّة ترتيب الوقائع التّاريخيّة عبر الاستعانة بسرديّات استشراقيّة تمّ تكييفها لتوافق المتخيّل الغربي نحو الشّرق، بما يعمّق الهوّة بينه وبين مستعمراته، فالرّؤية الرّومانسيّة تنظر إلى حملة نابليون على مصر بوصفها «لحظة تاريخية حاسمة قضت على خمول الشّرق وسكونه، وبالتّالي طمس هذا الحكم الأهداف الحقيقيّة بالتّرويج لتمثيل استشراقي خاضع لرغبة القوّة» (إبراهيم، 2004، ص 156).

فالحملة الفرنسيّة -فيما يذهب إليه عبد الله إبراهيم- في الخطاب المروّج لها: «لم تعد...تتويجا لجهود من التّطلّعات الغربيّة النّاشطة آنذاك للسّيطرة على هذا المجال الحيوي، إنمّا فعل رمزي متّصل بشخصيّة بطل تاريخي...وهكذا أسقطت تصوّرات خيالية على الحملة وقائدها، فتداخلت الأطياف، واستبعدت مصر الحقيقيّة، وأصبحت مجرّد خلفيّة لمسرح تقع عليه أفعال بطوليّة غربيّة، يمثّل الدّور الرّئيس فيها "نابليون"، وكأنّ الأمر استعارة من أدب الرّحلات، التي تمّت آنذاك بفعل موجّهات استشراقيّة، تدفعها الرّغبة والفضول للتّعرف المباشر إلى عالم شرقي مناظر لعوالم "ألف ليلة وليلة" الّتي كانت قد عرفت في أنحاء الغرب قبل ذلك الوقت، لكنّها أسهمت بدرجة كبيرة في صوغ المخيال الغربي في رؤيته للشّرق، ومعلوم أنّ كثيرا من الرّحالة كانوا يهتدون بموجّهات ذلك المخيال في زياراتهم للشّرق، وفي وصفهم له»(إبراهيم، 2004، ص 195-196).

هكذا، حمّلت الحملة الفرنسيّة وفق قراءة عبد الله إبراهيم الثّقافيّة بجملة من المعاني الرمزيّة والبطوليّة الّتي تسبح في أفق رومانسي خالص، ليختفي تدريجيا الوجه الحقيقي لمصر آنذاك خلف مصادرات غربيّة، غذّتها نوازع استشراقيّة، فلا وجود لآثار صراعيّة بين الأنا والآخر ضمن التّصور الغربي للحملة، فما استوى حال مصر إلاّ بعد هذا الحضور المشهود، هذا ما يؤكّده عبد الله إبراهيم في قوله: «أدخلت مصر في شبكة التّصور الرّومانسي الغربي للشّرق، فأنتجتها طبقا لتلك المعايير التّخيليّة، وبهذا اختزل الوجه الحقيقي للحملة، وطمس وراء رغبة فرد، أرسله القدر، للنهوض بعالم ساكن من خموله الأبدي. تمّ تركيب صورة متخيّلة ومضخّمة ومستعادة لمصر بعد عقد من الزّمان على مغادرتها، فـ "وصف مصر" بدأت أجزاؤه تظهر بالفرنسيّة في نهاية العقد الأوّل من القرن التاسع عشر، واستمرّت بعد ذلك لأكثر من عقد آخر، تمّ خلاله تغيير صورة المكان الذي كان موضوعا

لاحتلال الفرنسيّين، فمزجت مكوّنات الصورة بين التّمثيل الاستشراقي له ورغبة القوّة الّتي مثّلها "نابليون". تفاعلت على نحو فريد عناصر الرّؤية الرومانسيّة للعالم، حول واقعة الحملة، فبدت وكأنّها حقيقة شعريّة تتصاعد من تفاصيلها الأساطير الفرنسيّة في خاتمة عصر الأنوار» (إبراهيم، 2004، ص195).

حاصل الأمر من كل ما مضى، أن عبد الله إبراهيم استطاع من خلال تقليبه لواقع الحملة الفرنسية على مصر الكشف عن مصادرات المستعمِر، الّتي اتجهت صوب المغالاة في تعداد المكاسب الحضاريّة والثّقافيّة لحملة عسكريّة ذا طموحات استيطانيّة، تمّ السّكوت عن جوهرها بل طمسه، من خلال استعارة حمولات دلاليّة تستضيف الخيال الرومانسي عبر سرديات استشراقية مخصوصة. والواقع أن عبد الله إبراهيم عبر هذه المراجعة الثقافية غير المسبوقة، يجهز على كلّ المقولات الّتي استقرت في أذهان الممتثلين للخطاب الاستعماري، ويحفّز أكثر من ذي قبل على إعادة النّظر في التراكمات المعرفية الّتي تغذيها إرادة القوة، وتمثل تهديدا يأتي على جبِّ كلّ الملامح المشرقة للذّات الشّرقية.

نتائج البحث:

ويمكن أن نوجز أهم النتائج المتوصّل إليها في النّقاط الآتية:

– إنّ مسعى تفكيك مسلّمات الخطاب الاستعماري الّذي تجشمه عبد الله إبراهيم، في إطار إعادة ترتيب واقع الثقافة العربية الحديثة، لاسيما ما تعلّق بواقعة الحملة الفرنسية على مصر، يجعلنا نضع أطروحة النّاقد ضمن الدراسات ما بعد الكولونيالية الّتي رصدت كيفية تلقي خطاب المستعمر، وألقت الضوء على طرائق الإخضاع والإقصاء، وما ترتّب عنها من تشويه للحقائق، وطمس للهويات الثقافية.

– إنّ التحليل الثقافي الّذي أفاد عبد الله إبراهيم من إجراءاته، ينسجم والأهداف العامة لمشروعه، والتي لا ترى بدا في الرّبط بين النصوص والمرجعيات الثّقافية الّتي تغذيها بالمضامين والدّلالات.

– يكشف هذا التحليل عن التّماسك والتناغم في مشروع عبد الله إبراهيم، فهو يوظّف جهوده في نقد المركزيات الثقافية توظيفا مقصودا ومدروسا، ويستثمرها في إضاءة السياقات الثّقافية الحاضنة للسّرود.

– تنهل أطروحة نشأة الرواية كما يتصوّرها عبد الله إبراهيم من معين تراثي شعبي، وهذا ما جعله –في لفتة جريئة– يغفل دور المؤثرات الغربية، مما يكشف أهمية التفكيك كاستراتيجية منهجية، ساهمت في تشييد إمكانيات جديدة للنّشأة بعيدا عن تهكّم المصادرات، وزخم المقولات.

قائمة المراجع:

– الخضراوي إدريس.(2007).الأدب موضوعا للدراسات الثقافية، ط.1، الرباط، دار جذور.

- الخضراوي إدريس.(2008، مارس).السردية العربية الحديثة، نحو رؤية جديدة لنشأة الرواية العربية. الراوي، (ع18).
- لومبا آنيا.(2007).في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية، ط.1، سورية: دار الحوار،
- دريدا جاك.(2009، فبراير). ماهو التفكيك La déconstruction. نوافذ، (ع39).
- سليمان خالد.(2004، ديسمبر). في أدب ونقد "ما بعد الكولونيالية". علامات، م14، (ج54).
- روبنسون دوغلاس.(2009).الترجمة والامبراطورية، نظريات الترجمة ما بعد الكولونيالية، ط.2، دمشق- سورية: دار الفرقد.
- إبراهيم عبد الله.(2003).السردية العربية الحديثة، ط.1، الدار البيضاء-المغرب: المركز الثقافي العربي.
- إبراهيم عبد الله.(2004).الشرق الاستشراقي، الاستيهام الفرنسي بمصر المتخيلة. ثقافات، (ع10).
- الحسيب عبد المجيد.(2014).الرواية العربية الجديدة وإشكالية اللغة، ط.1، إربد: عالم الكتب الحديث.
- هاشمي غزلان.(2013). تعارضات المركز والهامش في الفكر العربي المعاصر، ط.1، العراق: دار نيبور.
- بن تومي اليامين.(2014).فلسفة السّرد، المنطلقات والمشاريع، د.1، الرباط: دار الأمان.
- كاظم نجم عبد الله.(2013). نحن والآخر في الرواية العربية المعاصرة، ط.1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.